تمهيد

لم نكن لنجمع المقالات والدراسات التالية في كتاب واحد إلا لكونها جميعًا تطرح، وبمستويات متباينة، الإشكالَ العام نفسه والمتمثل في الرجَّة التي هزت المجتمع والأعراف والفرد المعاصر في زمن الاستهلاك الجماهيري، وفي بروز نمط جديد من التنشئة الاجتماعية والفردية أحدث قطيعةً مع النمط السائد منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتجتهد هذه النصوص في الكشف عن هذا التحول التاريخي الذي لا يزال مستمرًا. هذا مع اعتبار أن عالم الأشياء والصور والمعلومات فضلًا عن القيم المُتعيَّة(١) والمتساهلة، قد دفعوا إلىٰ ظهور شكل جديد من ضبط السلوكيات، وقادوا في الوقت ذاته إلىٰ تنوع غير مسبوق علىٰ مستوىٰ أنماط العيش، وإلىٰ تعويم منهجي للفضاء الخاص وللمعتقدات والأدوار، وبعبارة أخرىٰ إلىٰ مرحلة جديدة من تاريخ الفردانية الغربية. إن عصرنا لم يُفلح في تنحية «الأخرويات» (Eschatologie)(٢) الثورية جانبًا إلا من خلال إنجاز ثورة متواصلة طالت الحياة اليومية والفرد ذاته: خصخصة واسعة النطاق، تآكل الهويات الاجتماعية، سخط إيديولوجي وسياسي، وتزعزع متسارع لاستقرار الشخصيات. إننا نعيش ثورة فردانية ثانية.

هناك فكرة مركزية هي بمثابة خيط ناظم للتحليلات التالية، وهي أنه مع تطور المجتمعات الديمقراطية المتقدمة، تجد هذه الأخيرة قابليتها للفهم في منطق جديد نصطلح عليه هنا بعبارة «عملية الشخصنة»، وهي عملية لا تتوقف عند إعادة

---

(١) نسبة إلىٰ مذهب المتعة (Hédonisme) [المترجم].

(٢) مجموع العقائد المتعلقة بالعالم الآخر وبمصير الإنسان بعد الموت ومصير الكون [المترجم].

صياغة مختلف مجالات الحياة بشكل عميق. ومما لا شك فيه أن هذه العملية لا تعيد هيكلة كل هذه المجالات بالدرجة نفسها ولا بالطريقة ذاتها، ونحن لا نغفل عن محدودية النظريات التي تجتهد في توحيد كل ما هو اجتماعي تحت طائلة مبدأ بسيط في الوقت الذي يبدو فيه جليًّا أن مجتمعاتنا تقوم بنسج عدد كبير من المعايير الخاصة. إلا أننا إذا أبقينا علىٰ فكرة نموذج متجانس، فإن ذلك يتعلق أساسًا وقبل كل شيء برغبتنا في تجاوز الرصد الآني للحظة والوقوف علىٰ خيوط التحول والاتجاه القوي الذي يحدد علىٰ مستوىٰ التاريخ تطور المؤسسات وأنماط العيش والتطلعات وأخيرًا الشخصيات. تعتمد عملية الشخصنة منظورًا مُقارنًا وتاريخيًا، وتدل علىٰ الخط الأساسي والاتجاه الجديد، وشكل التنظيم والضبط الاجتماعي الذي ينتشلنا من النظام الانضباطي الثوري التقليدي الذي ساد إلىٰ غاية الخمسينيات. إن عملية الشخصنة يكمن معناها في القطيعة الحاصلة مع المرحلة التي دشنت بروز المجتمعات الحديثة التي تتسم بكونها مجتمعات ديمقراطية-انضباطية وكونية-صارمة وإيديولوجية-إكراهية، ونرىٰ أن تشبيه هذه العملية باستراتيجية لتحول الرأسمال مُغرق في الاختزالية، حتىٰ وإن بدت بوجه إنساني. عندما تقوم العملية نفسها بإلحاق مجمل النسق بها في حركة تزامنية، فمن الوهم أن نطمع في اختزالها في وظيفة محلية أداتية، وإن كان صحيحًا أن ذلك قد يساهم بفعالية في إعادة إنتاج فائض القيمة أو زيادته. إن الفرضية التي نقدمها في هذا الكتاب مختلفة، ومؤداها أن ما يقع حاليًا هو تحول سوسيولوجي شامل، وإبداع تاريخي قريب مما يسميه كاستوريديس (Castoriadis) «دلالة خيالية مركزية»، وتركيبة متآزرة من التنظيمات والدلالات والأفعال والقيم، بدأت انطلاقًا من سنوات العشرينيات -فقط الفضاءات الفنية والتحليل النفسي استبقتها ببعض العقود- التي لم تتوقف آثارها في التعاظم منذ الحرب العالمية الثانية.

تحيل عملية الشخصنة في تعريفها السالب إلىٰ التشقق الذي أصاب التنشئة الاجتماعية الانضباطية، أما إيجابًا فتعني تشكُّل مجتمعٍ مرن قائم علىٰ الإعلام، وإثارة الحاجات، والجنس، وأَخْذِ «العناصر الإنسانية» بعين الاعتبار، وتقديس الطبيعي، والودِّ والدعابة. هكذا تشتغل عملية الشخصنة، وهي شكل جديد لتنظيم المجتمع وتوجيهه ولتدبير السلوكيات، لكن ليس من خلال طغيان التفاصيل،

وإنما عبر أقل قدرٍ من الإكراه والصرامة والإرغام وأكبر قدرٍ ممكن من الخيارات الخاصة والرغبة والتفهم. إنها في الواقع عملية شخصنة بالنظر إلىٰ أن المؤسسات تكيّف نفسها مع الدوافع والرغبات، وتحفّز علىٰ المشاركة، وتخصّص وقتًا حرًا ووقتًا للترفيه، وتُظهر توجهًا مماثلًا نحو أنسنة طرق التنشئة الاجتماعية وتنويعها ونَفْسَنَتِها[1] (psychologisation). ويحل نظام المعالجة بالمثل والتحكم الآلي بعد الترويض السلطوي والميكانيكي، وتحل البرمجة الاختيارية وبحسب الطلب بعد الإدارة الزجرية. لا يمكن عزل هذه الإجراءات الجديدة عن الغايات والشرعيات الاجتماعية الجديدة: القيم المُتعيَّة، احترام الاختلاف، تقديس التحرر الشخصي والاسترخاء والدعابة والأمانة، والنفسانية، والتعبير الحر. ماذا يسعنا القول غير أن الاستقلالية تأخذ معنىً جديدًا ملقية وراء ظهرها بالمثل الأعلىٰ الذي اتخذه العصر الديمقراطي السلطوي. لقد كان المنطق الحاكم في الحياة السياسية والإنتاجية والأخلاقية والمدرسية، وإلىٰ غاية تاريخ غير بعيد، يغمر الفرد بالقواعد الموحّدة، ويستخلص أشكال الأفضليات والتعبيرات المفردة بقدر المستطاع، ويُغرق الخصوصيات الفردية في قانون متجانس وكوني، سواء تعلق الأمر بـ «الإرادة العامة»، أو الاتفاقيات الاجتماعية، أو الضرورة الأخلاقية، أو القوانين الثابتة والمنمطة، أو الخضوع والتضحية اللذين يفرضهما الحزب الثوري. لقد سارت الأمور كما لو أن القيم الفردية لم تكن لترىٰ النور إلا مؤطرة من فورها بأنساق تنظيمٍ وتوجيه عملت بعنف علىٰ إبعاد التردد المتأصل فيها. إن هذا المخيال الصارم حول الحرية هو الذي اختفىٰ تاركًا مكانه لقيمٍ جديدة تنشد السماح بظهور الشخصية الحميمية بحرية، وشرعنة التمتع، والاعتراف بالمطالب المتفردة، وضبط المؤسسات علىٰ تطلعات الأفراد.

لقد تم سحق المثل الأعلىٰ الحديث المتمثِّل في إخضاع الحياة الفردية للقواعد العقلانية الجماعية، فقد رفعت عملية الشخصنة من شأن قيمة أساسية وجسدتها علىٰ نطاق واسع، وهي قيمة تحقيق الذات واحترام التفرد الذاتي والشخصية المتفردة، وهذا بغض النظر عن أشكال الضبط والتنميط الجديدة التي

(١) إخضاعها للتأويل النفسي [المترجم].

ظهرت بالموازاة. لا ريب أنه لا يمكن الفصل بين الحق في أن يكون الإنسان نفسه، وفي الاستمتاع بالحياة إلىٰ أقصىٰ حدٍّ، وبين مجتمع جعل من الفرد الحر قيمةً أصلية، ولا يعدو هذا الحق أن يكون تجليًا نهائيًا للإيديولوجيا الفردانية. إلا أن تحول أساليب العيش المرتبطة بالثورة الاستهلاكية هو الذي جعل هذا التطور الذي لحق حقوق الفرد ورغباته، وهذا التحول علىٰ مستوىٰ القيم الفردية، أمرًا ممكنًا. إنها قفزة إلىٰ الأمام بالنسبة إلىٰ المنطق الفرداني، فالحق في الحرية -الذي كان نظريًا غير محدود لكنه كان علىٰ المستوىٰ الاجتماعي محصورًا في الحياة الاقتصادية والسياسية والعلمية- أصبح يهمّ الأعراف والحياة اليومية. إن العيش بحرية دون قيود، واختيار الإنسان لنمط حياته من الألف إلىٰ الياء يمثل أكثر الأحداث الاجتماعية والثقافية أهميةً في زمننا، ونقطة تطلُّعٍ لمعاصرينا، وحقًا مشروعًا في أعينهم.

تمثل عملية الشخصنة استراتيجية شاملة، وتحولًا عامًّا علىٰ مستوىٰ الفعل والإرادة بالنسبة إلىٰ مجتمعاتنا. ويتعيّن أن نميّز بين وجهين في هذه العملية: **الوجه الأول** «خاص» أو عملي، ويحدد مجموع الآليات السائلة وغير النمطية، وأشكال الاستمالة المبرمجة التي تستعملها أجهزة السلطة والإدارة والتي تقود باستمرار معادي اليمين وخصوصًا من اليسار إلىٰ إدانة الإشراط (conditionnement) المعمّم، وجهنم المبرّدة، و«الشمولية» لمجتمع الوفرة. أما **الوجه الثاني** فيمكننا أن نقول عنه إنه «متوحش» أو «مُوازٍ»، ويعتمد علىٰ إرادة الاستقلالية وتخصيص المجموعات والأفراد: النسوية الجديدة، تحرير الأعراف والجنس، التكنولوجيا النفسية، الرغبة في التعبير وتنمية الذات، الحركات «البديلة». أينما يَمَّمنا وجوهنا، لم تعد الكونية هي التي تحفّز الأفعال الاجتماعية والفردية، وإنما البحث عن الهوية الخاصة. لا ريب أن هذين الفضاءين يملكان خصوصياتهما، لكنهما يتشاركان في العمل علىٰ الخروج من المجتمع الانضباطي عبر تأكيد نفسيهما ولكن أيضًا عبر استثمار مبدأ الخصوصيات الفردية.

لقد برزت عملية الشخصنة داخل الفضاء الانضباطي بحيث تميز العصر الحديث المنقضي بتزاوج منطقين متناقضين. إن إلحاق عملية الشخصنة لفضاءات الحياة الاجتماعية علىٰ نحو بيِّن ومتزايد، وتراجع العملية الانضباطية الذي لَازَم ذلك هما اللذان قادانا نحو الحديث عن مجتمع ما بعد حداثي، بمعنىٰ مجتمع يعمم أحد اتجاهات الحداثة التي كانت تشكل أقلية في البداية. والحديث عن مجتمع ما بعد حداثي هو طريقة للحديث عن الانعطافة التاريخية التي عرفتها أهداف التنشئة الاجتماعية وأساليبها، والتي تعيش اليوم في كنف آليات مفتوحة وتعددية. إنها طريقة للقول بأن الفردانية المُتعيَّة والمشخصنة قد أصبحت مشروعة ولم تعد تواجه معارضة، وبأن زمن الثورة والفضيحة والأمل المستقبلي، الذي لا يمكن فصله عن الحداثانية، قد ولَّىٰ. إن المجتمع ما بعد الحداثي هو مجتمع تسود فيه اللامبالاة الجماهيرية، ويهيمن فيه الإحساس بالتكرار ومراوحة المكان، وتُعد الاستقلالية الفردية فيه أمرًا طبيعيًا، ويُستقبل فيه الجديد مثلما يُستقبل القديم، ويصبح الابتكار أمرًا عاديًا، ويتوقف الناس عن رؤية المستقبل كمرادفٍ للتقدُّم الحتمي. لقد كان المجتمع الحداثي بمثابة الفاتح، وآمَنَ بالمستقبل وبالعلم والتقنية، وتبلور في قطيعة مع الهرميات القائمة علىٰ روابط الدم والسيادة المقدسة، ومع التقاليد والخصوصيات في سبيل الكونية والعقل والثورة. يتبدد هذا الزمن تحت أنظارنا، فمجتمعاتنا تأسست جزئيًا في تضادٍ مع هذه المبادئ المتعلقة بالمستقبل، وأصبحت بذلك مجتمعاتٍ ما بعد حداثية تتلهف إلىٰ الهوية والاختلاف والتحفظ والاسترخاء والتحقيق الفوري للذات. إن الثقة والإيمان بالمستقبل يذوبان، وما عاد أحد يؤمن بغد الثورة والتقدُّم المشرق، فالناس حاليًا تريد أن تعيش فورًا وهنا والآن، وأن تحتفظ بشبابها، ولم تعد تكترث لتشكيل الإنسان الجديد. يدل المجتمع ما بعد الحداثي بهذا المعنىٰ علىٰ تراجع الزمن الاجتماعي والفردي، في حين أن الحاجة إلىٰ تنظيم الزمن الجماعي لا تزال ملحَّةً، كما يدل علىٰ تآكل الاندفاع الحداثي نحو المستقبل، وخذلان الجديد ورتابته، وإنهاك مجتمعٍ نَجَحَ بسبب فتوره في تحييد القيمة التي قام عليها، وهي التغيير. لقد هجر النّاس المحاور الحديثة الكبرىٰ، أي الثورة والتخصصات والعلمانية والطليعة، من فرط الشخصنة المُتعيَّة. وسقط التفاؤل التقني والعلمي،

فالاكتشافات العديدة صاحبها تسلُّح مفرط من جانب القطبين وتدهور للبيئة وميول متزايدة إلىٰ العزلة عند الأفراد. ولم تعد أي إيديولوجية سياسية تملك القدرة علىٰ إثارة الحشود، وسقطت الأصنام والتابوهات في المجتمع ما بعد الحداثي الذي لم يعد يملك صورة ممجدة عن نفسه، ولا مشروعًا تاريخيًا يبعثه علىٰ الحركة. إن الفراغ هو الذي يحكم الآن، لكنه فراغ لا يمثل مأساةً أو نهايةً للعالم.

لقد كان الإعلان المتسرع عن نهاية مجتمع الاستهلاك خطأً كبيرًا، في الوقت الذي بدا فيه واضحًا أن عملية الشخصنة لم تتوانَ عن توسيع حدود الاستهلاك. إن الانكماش الاقتصادي الحالي، والأزمة الطاقية، والوعي البيئي ليسوا بوادرَ تنذر بنهاية عصر الاستهلاك، فنحن محكومون بالاستهلاك، وإن كان بشكل مختلف، ونريد دائمًا قدرًا أكبر من الأشياء والمعلومات، والرياضات والأسفار، والتعليم والعلاقات، والموسيقىٰ والرعاية الطبية. هذا هو المجتمع ما بعد الحداثي، وهو لا يمثل مرحلة بعدية للاستهلاك بل تتويجًا لهذا الأخير وامتدادًا له علىٰ مستوىٰ الفضاء الخصوصي، وعلىٰ مستوىٰ صورة الأنا ومستقبلها، التي ستحظىٰ بمصير التهالك المتسارع والحركية والتزعزع. تؤدي عملية الشخصنة، من خلال استهلاك الإنسان لحياته عبر وسائل الإعلام المتعددة والترفيه وتقنيات التواصل، إلىٰ فراغ متلون وإلىٰ التعويم الوجودي في وفرة النماذج وعبرها، وإن كانت هذه النماذج مزيَّنةً بالودِّ وبالنزعتين البيئية والنفسية. إننا نعيش تحديدًا في المرحلة الثانية من المجتمع الاستهلاكي، وهي مرحلة باردة ولم تعد ساخنة، فقد تمكن الاستهلاك من هضم النقد الموجه نحو البذخ. في الواقع، لقد انتهت عبادة الأسلوب الأمريكي في الحياة *(American way of life)*، والسيارات المكسوة بالكروم، والنجوم الكبار وأحلام هوليوود، وانتهت ثورة البيتنيك[(١)] *(Beatnik)* وفضائح الطلائع. لقد انسحب كل هذا لصالح ثقافة ما بعد حداثية يمكن التعرف إليها عبر عدة ميزات: السعي نحو جودة الحياة، الشغف

(١) الشباب الأمريكيون (ذكورًا وإناثًا) الذين تمردوا علىٰ المجتمع الاستهلاكي مع بداية عقد الخمسينيات من القرن الماضي، وعبَّروا عن ذلك من خلال إهمال الجسد وطريقتهم في اللباس وتسكعهم في الطرقات، ورؤيتهم الخاصة للسعادة [المترجم].

بالشخصية، الحساسية تجاه البيئة، هجر أنساق المعنىٰ الكبرىٰ، تقديس المشاركة والتعبير، النموذج الماضوي، إعادة الاهتمام بما هو محلي وإقليمي وببعض المعتقدات والممارسات التقليدية. هل يتعلق الأمر بخسوف للشَّره الكمي الذي ساد سابقًا؟ نعم بالتأكيد، لكن علينا ألا نغفل عن كون هذه الظواهر تمثل أيضًا تجليات لعملية الشخصنة التي تنطوي علىٰ استراتيجيات عديدة تعمل علىٰ تقويض آثار الحداثانية المتجانسة، والعملاقية (gigantisme) والمركزية والإيديولوجيات الصلبة والطليعة. ولا ينبغي النظر إلىٰ عصر الاستهلاك «الخامل» علىٰ أنه نقيض للحركات التي ننعتها بكونها ما بعد حداثية وإبداعيةً وبيئية وإحيائية، فهما يتضافران جميعًا في انهيار العصر الحديث المتصلب من أجل المزيد من المرونة والتنوع والاختيارات الخصوصية، وبقصد إعادة إنتاج مبدأ الخصوصيات الفردية علىٰ نحو موسع. لم تبدأ القطيعة ما بعد الحداثية مع هذا الأثر الخاص أو ذاك، ثقافيًا كان أم فنيًا، ولكن بدأت مع السطوة التاريخية لعملية الشخصنة، ومع إعادة هيكلة الحياة الاجتماعية تحت قانون هذه العملية.

تمثل الثقافة ما بعد الحداثية القطب «البنيوي الفوقي» لمجتمع غَادَرَ تنظيمًا نمطيًا وتحكميًا، واضطر من أجل ذلك أن يشوش علىٰ آخر القيم الحداثية، وأن يرفع من شأن الماضي والتقاليد، وأن يُذوِّب سطوة المركزية، وأن يعمد إلىٰ نثر معايير الحقيقة والفن، وأن يشرعن التأكيد علىٰ الهوية الشخصية وفقًا لقيم مجتمع مشخصن حيث يكمن الأهم في أن يكون الإنسان نفسه، ويستحق كل شيء بالتالي الحق في الاعتراف الاجتماعي، وحيث لا يحق لشيء أن يفرض نفسه بشكل لازم ودائم، وحيث يمكن لجميع الخيارات والمستويات أن تتعايش دون تناقض ولا إبعاد. إن الثقافة ما بعد الحداثية هي في الوقت ذاته ثقافةٌ غير متمركزة وغير متجانسة، وثقافة مادية ونفسية، وإباحية ومتسترة، ومجددة وماضوية، واستهلاكية وبيئية، ومعقدة وعفوية، ومذهلة ومبدعة. ولا ريب أن المستقبل لن يضطر إلىٰ الاختيار بين كل هذه الاتجاهات، بل سينمّي علىٰ العكس من ذلك الأنساق المنطقية المزدوجة والوجود المشترك والمرن للتناقضات. ما من شك حول وظيفة هذا الانشطار، فالثقافة ما بعد الحداثية تساهم، بالموازاة مع الآليات المشخصنة الأخرىٰ، في إشاعة الفردانية، من خلال تنويع الخيارات الممكنة،

وإسالة المعالم، وتقويض المعاني الأحادية والقيم العليا للحداثة، وتصوغ ثقافةً مشخصنة أو علىٰ المقاس تسمح للذرة الاجتماعية بالتحرر من الإرشاد الانضباطي الثوري.

غير أنه ليس صحيحًا أننا نعيش ضياعًا للمعنىٰ ونزعًا للشرعية عن كل شيء؛ إذ إن هناك قيمة أساسية لا تزال قائمة في زمن ما بعد الحداثة، وهي قيمة غير مادية ولا يتم الحديث عنها من خلال تجلياتها المتعددة. ويتعلق الأمر بالفرد وحقِّه المعلن علىٰ الدوام في تحقيق ذاته، والعيش بحرية حتىٰ مع وجود تقنيات التحكُّم الاجتماعية وآلياتها التي أصبحت أكثر تطورًا و«إنسانية». إذا كانت عملية الشخصنة قد أحدثت قطيعة علىٰ مستوىٰ التاريخ، فإنها بالمقابل تواصل بطرق مختلفة العمل الذي استمرَّ عدة قرون، والمتمثل في الحداثة الديمقراطية الفردانية. تحصل قطيعة هنا واستمرارية هناك؛ لذا فإن مفهوم المجتمع ما بعد الحداثي لا يأتي بقول مغاير. تنطفئ مرحلة لتبدأ أخرىٰ تتعلق بأصولنا السياسية والإيديولوجية عبر روابط أكثر تعقيدًا مما نكون قد تصورنا في بادئ الأمر.

إذا كان ثمة ضرورة للجوء إلىٰ صيغة عمليةٍ للشخصنة فإن هذا لا يعود إلىٰ جديد تكنولوجيات التحكم الرخوة وحسب، وإنما أيضًا إلىٰ آثار هذه العملية علىٰ الفرد ذاته. تخضع الفردانية بسبب عملية الشخصنة لتكيُّف نَصفه بالنرجسي أسوةً بعلماء الاجتماع الأمريكيين. وتُعد النرجسية نتيجة وتجليًا مصغرًا لعملية الشخصنة، ورمزًا للانتقال من الفردانية «المحدودة» إلىٰ الفردانية «الشاملة»، ورمزًا للثورة الفردانية الثانية. هل ثمة صورة أفضل من أجل التعبير عن بروز هذا الشكل من الفردية بحساسيتها النفسية، والمزعزعة والمتسامحة، والمتمركزة حول التحقيق العاطفي للذات، والمتلهّفة لمرحلة الشباب والرياضة والإيقاع، والمتطلِّعة إلىٰ تحقيق ذاتها باستمرار علىٰ مستوىٰ الفضاء الخاص أكثر من تطلُّعها إلىٰ النجاح في الحياة؟ وأي صورة أخرىٰ بمقدورها أن تقدم الدفعة الفردانية الباهرة التي تمخضت عن عملية الشخصنة بهذه القوة؟ وأي صورة أخرىٰ تسمح بتصوير أفضل لوضعنا الراهن حيث لم تعد الظاهرة الاجتماعية الأبرز هي الانتماء والتناقض الطبقيين، وإنما تناثر الشأن الاجتماعي؟ إن الحاجات الفردانية تنير فهمنا الآن

أكثر مما تفعل المصالح الطبقية، وتُعد الخصخصة أكثر دلالة من علاقات الإنتاج، وتُعد المُتعيَّة والنفسانية أكثر ثقلًا من برامج الفعل الجماعي وأشكاله، وإن كانت جديدة (محاربة الانتشار النووي، الحركات الإقليمية، إلخ). يهدف مفهوم النرجسية إلىٰ أن يكون صدىٰ لسطوة الفضاء الخصوصي هذه.

ليسمح لي القارئ بتقديم بعض الإيضاحات والإضافات بخصوص مسألة سبق وأن أثارت الكثير من سوء الفهم. لا تعني النرجسية، خلافًا لما كُتب هنا أو هناك، الانسحابَ السياسي الذي تشهده اللحظة، وإنما تعني بشكل عام الارتخاء الذي ألمَّ بالرهانات السياسية والإيديولوجية، والاهتمام الزائد بالمسائل الذاتية الذي رافق ذلك. يحيل انتشار رياضات ركوب الأمواج والتزلج والطائرات الشراعية إلىٰ أن المجتمع ما بعد الحداثي يعيش في عصر التزحلق، وهذه صورة تعبّر بجلاء عن زمن لم يعد الشأن العام فيه يأوي إلىٰ ركن شديد ولا إلىٰ عاطفة ثابتة. وتعرف القضايا البارزة التي تهم الحياة الجماعية الآن المصير نفسه الذي تعرفه الأغاني الناجحة؛ إذ إن كل القامات تسقط من عليائها، وكل شيء يتزحلق في لا مبالاة مرتخية. إن هذا النزول والتشييء الذي تعرض له ما كان يحظىٰ بمكانة سامية في السابق هو الذي يميز النرجسية، وليس الوضع المزعوم بأن الفرد قطع اتصاله بما هو اجتماعي وانطوىٰ علىٰ نفسه في خصوصيته المتوحّدة. تفقد النرجسية معناها الحقيقي إلا إذا تم النظر إليها من منظور تاريخي، وأهم ما يميزها هو السيرورة النزوعية التي تقود الأفراد إلىٰ الحد من الحمولة العاطفية التي يصرفونها علىٰ مستوىٰ الفضاء العام أو الفضاءات المتسامية، وتؤدي بالمقابل إلىٰ الزيادة من أولويات الفضاء الخصوصي. ولا يمكن فصل النرجسية عن هذا الاتجاه التاريخي القاضي بالتحويل العاطفي، أي تسوية-خفض الهرميات العليا، وتضخُّم الأنا. قد يبدو كل هذا أكثر بروزًا أو أقل بحسب الظروف، لكن هذا الاتجاه لا رجعة عنه علىٰ الأمد البعيد؛ لأنه يتوج المقصد الذي سعت وراءه المجتمعات الديمقراطية خلال قرن. لقد أصبحت السلطات أكثر اختراقًا ورعاية وتسترًا علىٰ نحو متزايد، وأصبح الأفراد أكثر اهتمامًا بأنفسهم و«ضعفاء»، أو بمعنىٰ آخر غير مستقرين ودون قناعات، ونرىٰ أن نبوءة «توكفيل» تجد تجسدها الأقصىٰ في النرجسية ما بعد الحداثية.

وكما أنه لا يمكن حصر النرجسية في تراجع الاهتمام بالشأن السياسي، فإنه لا يمكن أيضًا فصلها عن الوَلَهِ بالعلاقات الخاصة، وهذا ما يشهد عليه تكاثر الجمعيات ومجموعات الدعم والتعاون. لا يكمن الشكل النهائي للفردانية في استقلال سيادي غير اجتماعي، وإنما في الصلات والروابط مع مجموعات تدافع عن مصالح مصغرة ومتخصصة جدًا: تجمعات الأرامل، آباء الأطفال المثليين جنسيًا، المدمنين علىٰ الكحول، المتمتمين، الأمهات السحاقيات، المصابين بالشره المرضي. لا بدَّ من إعادة موضعة النرجسية في إطار الدوائر والشبكات المندمجة (التضامن بين المجموعات الصغرىٰ، المساهمة والتنشيط الطوعي، «الشبكات الظرفية»)، لكن هذا لا يتعارض مع فرضية النرجسية بل يؤكد هذا الاتجاه؛ لأن اللافت للنظر في هذه الظاهرة هو من جهة تراجع الأهداف الكونية إذا ما قارنًّا بينها وبين النضال الإيديولوجي والسياسي في الماضي، ومن جهة أخرىٰ الرغبة في الاجتماع بأناس نتقاسم معهم الاهتمامات اللحظية والمحصورة نفسها. يتعلق الأمر بنرجسية جماعية، فنحن نجتمع لأننا نتشابه، ولأننا نحمل الأهداف الوجودية نفسها. ولا تتميز النرجسية بالاستبطان المتعي الذاتي وحسب، وإنما أيضًا بالحاجة إلىٰ الاجتماع بأشخاص مماثلين، وفي إفادة الآخرين والمطالبة بحقوق جديدة بلا شك، والحاجة إلىٰ التحرر وحل المشاكل الخاصة عبر «الاتصال» و«المعيش»، والتخاطب بصيغة الأنا. وتُعد الحياة الجمعوية بذلك أداةً نفسية. تجد النرجسية نموذجها في نفسنة (psychologisation) الشأن الاجتماعي والسياسي والساحة العمومية بشكل عام، وإضفاء الذاتية علىٰ جميع الأنشطة التي كانت غير شخصية أو موضوعية في السابق.

لقد كان العصر الحداثي مسكونًا بالإنتاج وبالثورة، لكنَّ العصر ما بعد الحداثي مسكون بالإعلام والتعبير. نحن نعبّر، كما يقال، في العمل من خلال «الاتصال»، وفي الرياضة والترفيه إلىٰ درجة أنه لن يكون هناك قريبًا نشاط واحد فقط يخلو من الوسم «الثقافي». هذا لم يعد حتىٰ خطابًا إيديولوجيًا، فقد أصبح تطلعًا جماهيريًا يُعد التكاثر الخارق للإذاعات الحرة آخر تجسُّدٍ له. لقد أصبحنا جميعًا مركّبي موسيقىٰ *(Disc-jockeys)*، ومذيعين ومنشطين، ويكفي تشغيل الراديو لتفاجأ بسيل من الموسيقىٰ، والكلام المقطع، والحوارات، والاعترافات،

و«الأحاديث» الثقافية والإقليمية والمحلية والمتعلقة بالحي أو المدرسة أو المجموعات المحدودة. إننا نشهد دمقرطة غير مسبوقة للكلام، فكلنا مدفوعون إلىٰ الاتصال بالهواتف، وكلنا يجد الرغبة في قول شيء ما انطلاقًا من تجربته الخاصة، وكلنا يمكن أن يصبح متحدثًا وأن يحظىٰ بالاستماع. ولكن ينطبق علىٰ هذا ما ينطبق علىٰ الرسوم علىٰ جدران المدارس أو العديد من المجموعات الفنية، فكلما أكثرنا في التعبير كلما لم يعد هناك ما يقال، وكلما زادت الذاتية كلما كان الأثر متخفيًا وفارغًا. يتعزز هذا التناقض بسبب أن لا أحد في الحقيقة يهتم بغزارة التعبير هذه، باستثناء المرسل أو المبدع نفسه. وهذه تحديدًا هي النرجسية، أي التعبير كيفما اتفق، وأولوية فعل التواصل علىٰ حساب طبيعة موضوع التواصل، واللامبالاة تجاه المضامين، وانمحاء المعنىٰ، والتواصل دون هدف ولا جمهور، والملقي الذي أصبح المتلقي الأساسي لما يلقيه. وهنا يكمن السبب في وفرة الحفلات والعروض والحوارات والأحاديث المفتقدة تمامًا للمعنىٰ عند أي أحد، والتي لم تعد تُحسب حتىٰ علىٰ المرح. وهناك أمر آخر في القصة، وهو الإمكانية والرغبة في التعبير بغض النظر عن طبيعة «الخطاب»، بالإضافة إلىٰ الحق والمتعة النرجسية في التعبير من أجل لا شيء أو من أجل ذات الإنسان، لكن مع التحويل والتضخيم عبر واسطة. يتواصل الناس من أجل التواصل، ويعبرون فقط بهدف التعبير ومن أجل تسجيل كلامهم من طرف ميكروفون عام، وتُبرز النرجسية هنا، كما في مناسبات أخرىٰ، تواطؤها مع النزع ما بعد الحداثي للجوهر، ومع منطق الفراغ.